بحث عام | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 04 سبتمبر 2018

أصــول العنــف:
مقاربة من أجل فهم ظاهرة العنف وميكانيزماتها

سلمى بالحاج مبروك
باحثة تونسية

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

All rights reserved © 2018
جميع الحقوق محفوظة © 2018

تمهيد

العنف ليس ظاهرة جديدة خاصّة بالعالم المعاصر، بل ظاهرة قديمة قدم العالم الذي نعيش فيه. لذلك نرى حضور العنف في كثير من الخرافات والأساطير القديمة، حيث تظهر لنا هذه الأساطير ارتباط العنف بالأصول الأولى، فهو مرافق دائم للأبطال والمؤسّسين وجزء لا يتجزّأ من كلّ تاريخ البشريّة، بل إنَّه ما يزال إلى اليوم منتشراً في كلّ مكان على شاشاتنا وفي وسائل الإعلام، وهو الأقرب إلينا في علاقتنا الإنسانيّة اليوميّة. والعنف هو ظاهرة تمسّنا وتؤثر علينا وتهمّنا جميعاً. لهذا نجد أنفسنا محاطين واقعيّاً بظاهرة العنف، بل غارقين في عالم استفحل فيه العنف. لذلك فرض العنف نفسه موضوعاً في الخطاب اليومي لعصرنا الراهن، لدرجة أصبحت هذه الظاهرة محطّ تأويلات وتعريفات متعدّدة، وكرّست لها المراكز الدوليّة والجهود البشريّة لفهمها سواء من قبل المفكرين أو الحكومات، وهي تثير أيضاً قلق الأفراد، لأنَّها تعرّض حياتهم للخطر. إنَّ كلّ هذا الأفق المليء بالعنف ليس مدعاة للغرابة عندما ننتبه لحاضرنا المرعب الذي تميز بانتشار العنف في كلّ مظاهر حياتنا وعلى مستويات عدّة، كما تحاول كلّ يوم أن تذكّرنا وسائل الإعلام المختلفة من صحافة ومذياع وتلفاز. بل إنّنا نشهد انتشاراً قلَّ له نظير ونحن نلامس بأمّ أعيننا ما أصاب العلاقات الدوليّة من علاقات عنيفة وعدوانيّة تتجسّد في شكل حروب وحشيّة متواصلة وقاسية، تحوّلت في أحيان كثيرة إلى حرب عصابات لا تبقي ولا تذر، يمارس فيها الإرهاب السياسي والاضطهاد الإيديولوجي تجاه كلّ من يخرج عن نظام العالم وأمثولته التي تعمل العولمة على نحتها والترويج لها. بل إنَّ العنف قد اخترق لغتنا ذاتها وأسلوبنا في التواصل مع الآخرين، وأصبحت كلماتنا التي ننطقها والصور التي نراها فائضة عنفاً. وهو ما يعني أنَّ تاريخ البشريّة من القديم إلى عصر فولتير وما بعده لم ينجح في تجاوز ظاهرة العنف، وإنّما حاول إخفاءها تحت طلاء وغطاء الطريقة المثلى في تهذيب السلوك الإنساني، وحتى الحضارة الغربيّة المزهوّة بنفسها منذ عصر الأنوار ترى أنَّ العنف الذي تعيشه الدول الأخرى لا يعنيها، فهو «عنف آخر»، لأنَّ في اعتقادها أنَّها تعيش في عالم هادئ قد حصّنته من العنف بتوفير مجتمع ديمقراطي يحكمه القانون والنظام وصيانة حقوق الإنسان، وهي ذاتها لا يمكن أن تعيش بمعزل عن العنف، حتى وإن تبنّت ثقافة تريد إنكار العنف المعاش، فإنَّ الحقيقة هي أنَّ الواقع عنيف. ذلك أنَّ الشاشة التي تخفي العنف هشّة، وبإمكان العنف أن يحطّمها في أيّة لحظة يشاء. من هنا يتوجب علينا التفكير في طريقة تمنحنا الخروج من وهم العيش في عالم مترامي الرخاء والعدالة والاستقرار والوعي بخطورة هذه الظاهرة وحقيقتها.

وأمّا أولئك الذين يأملون أمل الحالمين بأنَّ السلام ممكن على أرض لم «تعرف يوماً سلاماً»، ويحاولون نفي وجود العنف، فإنَّما هم ينغلقون داخل أوهام عالم يسوده السلام. لذلك فنحن مطالبون بالكشف عن العنف الذي يختفي خلف وجه البشريّة ومواجهته بدل ادعاء أنَّنا نعيش رخاء وسلماً أو كنَّا نعيش، لأنَّ بناء ثقافة السلام واللاعنف لا يمكن أن يتحقق دون فهم وتفكيك آليّات العنف وأصوله ونزع أقنعته المتخفية وراء ما

يظهر كأنَّه سلام. والآن وقد تحوّل العنف من مجرّد ظاهرة مصاحبة للسلوك البشري على مرّ التاريخ إلى موضوع تفكير من قبل الفلسفة والعلوم الإنسانيّة بصفة عامَّة، فإنَّ هذا الأمر يتيح لنا دراسة هذه الظاهرة والوقوف على أسبابها وأصولها ونتائجها، وذلك بإثارة جملة من الإشكاليّات من بينها ما يلي: لماذا يوجد العنف؟ ما دلالات العنف؟ ما جذوره وآليّات عمله؟ هل ثمّة عنف مشروع وآخر غير مشروع؟ وهل يمكن الحديث عن عنف أخلاقي وآخر لا أخلاقي؟ هل يمكن تجاوزه، أم هو كما عبّر عن ذلك سيغموند فرويد لا يوجد أيّ أمل في تجاوزه، لأنَّه مرتبط بنوازع الإنسان العنيفة؟ وبالتالي، هل يمكن القول إنَّ العنف مجرّد ظاهرة نفسيّة مرتبطة بالبنية النفسيّة للإنسان؟ هل العنف قدر بشريّ وحتميّة تاريخيّة؟ هل هو نفسي أم اجتماعي أم اقتصادي؟ أم رمزي؟ وعندما يكون هناك عنف فهل أسبابه ينبغي البحث عنها بجانب الطبيعة البشريّة القاتلة المتشبّعة بالخطيئة أو الغرائز التافهة، أم بجانب شكل مجتمع ما وطرق تربيته، كما أكّدت مارغريت ميد (Margaret Mead): «يكون نتيجة للتكييف الاجتماعي والمجتمع هو الذي يقرّر طبيعة هذا الوضع البشري»[1] الذي يفضّل الصراع لخدمة المصالح الخاصة فقط؟ وهل ثمّة علاقة تلازميّة بين العنف والمقدَّس؟ هل كلّ مقدَّس عنيف؟ وهل يمكن تبرير العنف بدعوى الدفاع عن المقدَّسات وعن حقوق الإنسان؟ إنَّ ما نراهن عليه إذا ما استطعنا كشف مبرّرات تعميم العنف، هو السماح بفهم أفضل لأسباب ظهوره، وانفجاره الحالي، وبالتالي فهم طبيعته الحقيقيّة. وهو ما يتيح لنا النأي بأنفسنا عن العنف الذي يغرقنا ويحاصرنا من جميع الجهات، وحتى القدرة على قياس الخطر المداهم الذي يترصّد كينونتنا من جرّائه والسعي قدر الإمكان لعلاج هذه الظاهرة المدمّرة للوجود البشري.

1ـ في تعريف العنف ودلالاته: ما هو العنف؟

أ) تعريف العنف بالإيجاب: يعرّف العنف على أنَّه عمليّة قتل، حتى وإن كانت هذه العمليّة لا تذهب إلى حدودها القصوى، ولا تنخفض حدّة العنف عن طريق الإزالة الماديّة للشخص أو للمجموعة المقصودة. يعتبر هدف العنف الرئيس هو التدمير والرغبة في القضاء على الآخر واستبعاده وإقصائه، واختزاله إلى كينونة صامتة يصبح أقوى من الرغبة في الحوار والنقاش معه. والعنف ليس الصراع فقط، بل هو كلّ ما يسمّمنا وهو ما يمنع إعطاء نتائج إيجابيّة للصراع، وعدم الخروج بتجربة ناضجة منه. لأنَّ العنف هو ما يؤدي إلى نفي الآخر. وهو ظاهرة عالميّة ومنتشرة في كلّ مكان، ويمكن أن تأخذ أشكالاً متعدّدة، بدرجات متفاوتة: إذ أنَّه يمكن أن يكون بمرتبة أخلاقيّة وماديّة ولفظيّة، وحتى نفسيّة واقتصاديّة. «كما يمكن القول إنَّه ليس هناك فقط العنف المفتوح، والمعلن والحربي، ذلك المتعلق بالإهانات والضرب والأفعال الحربيّة، ولكن

1. Margaret Mead, Mœurs et sexualité en Océanie, Paris: Plon, 1969, Collection: Terre humaine.

*ـ مارغريت ميد عالمة اجتماع أمريكيّة ذات شهرة عالمية في الإعلام خلال الستينيات من القرن العشرين، قامت بدراسة عادات المجتمعات من أرخبيل المحيط الهادئ. وتبينت من خلال ملاحظتها لثلاث مجتمعات تعيش في الأرخبيل نفسه أنّ لها ثقافات مختلفة جداً، وخاصة فيما يتعلق بالتمييز في «الجنس» بين الذكور والإناث. وهو ما جعلها تستنتج أنَّ المجتمع هو الذي يكيّف طبائع الأفراد حسب إحتياجاته.

أيضاً العنف الميكروفيزيائي الخفي الذي يمكنه الاختباء في ثياب العادات وطيّات الأدب والنظام والمجهول. والعنف يمكن أن يتخذ مظهراً حضارياً وهو الذي لا يتذكر السلوك الوحشي للجاني أو للإرهابي»[2]. يمكن إثراء هذه الملاحظة بالتدقيق أكثر، وذلك بإضافة أنَّ العنف يمكن أن يكون مباشراً عندما يكون الزعماء محدّدين وتكون الظروف معترفاً بها، كما هو الحال في حالة العدوان، والإهانة والقتل والهجمات الإرهابيّة، والحروب...العنف يمكنه أيضاً أن يكون بنيويّاً عندما ينتهك حقوق الإنسان. هذه هي حالات العنف الاقتصادي أو الاجتماعي، والتمييز العنصري، الديني والجنسي ... هذا العنف البنيوي يمكن أن يجد جذوره في الإرادة السياسيّة أو الدينيّة في أيديولوجيّة العنف. وأخيراً لا بدَّ من التأكيد أنَّ العنف ليس مجرَّد موقف أو سلوك موجَّه نحو الآخر فقط، إذ يمكن للإنسان أن يكون عنيفاً تجاه نفسه أيضاً.

ب) تعريف العنف بالسلب: من الضروري تمييز العنف عن العدوان والقوّة والصراع.

- لا بدَّ من التمييز بين العنف والعدوان، بمعنى أنَّ العدوان يمثل قوّة محاربة وتأكيداً للذات يمكن أن يكون عنصر بناء لشخصيتي، لأنَّه يتيح لي مواجهة الآخر دون مهاجمتي. إيتيمولوجياً، فإنَّ مصطلح العدوانيّة «agressivité» متأتٍ من الكلمة اللاتينيّة «aggredi» التي تعني «السير نحو أو في اتجاه...». بواسطة العودة إلى أصله الإيتيمولوجي، فإنَّ الفعل «agresser» لا يعني مزيداً من «العنف» كما هو فعل «تقدم»، الذي يعني «السير إلى الأمام». فإنَّ مصطلح «Aggredi» يجسّد أكثر فكرة الطاقة القتاليّة، إذ أنَّه دون عدوانيّة ليس بإمكان الإنسان التغلب على مخاوفه والذهاب إلى الأمام. إذا تمسّكنا بأصل الكلمات، فإنَّ العنف ليس في النهاية سوى انزلاق عن العدوانيّة. فبالمعنى الاشتقاقي لا يعني الاعتداء سوى «السير ضدّ شيء ما». لأنَّ هذا هو المعنى المقصود، ففي حالات الحرب، الهجوم على العدو هو السير نحوه لهزمه، وهذا يعني القيام بمهاجمته[3].

- العنف ليس القوّة: فالقوّة لا توجد إلّا بواسطة الفعل، وهذا الفعل يمكن أن يكون عنيفاً أو غير عنيف. فالقوّة والعنف لا يتموضعان السجل نفسه.

- وأخيراً، يجب عدم الخلط بين العنف والصراع: الصراع هو جزء من الحياة وجزء من أيَّة علاقة مع الآخر. ويمكن أن يكون عاملاً إيجابيّاً للتغيير في علاقة ما أو في المجتمع. الصراعات هي فرص للابتكار،

2. J-F Bazier, extrait de son exposé «la Non-violence: une proposition», du 5 juillet 2006.

3. Pax Christi Wallonie; Qu'est-ce que la violence? ANALYSE 2006; Publié avec le soutien du service de l'éduc - tion permanente de la Communauté française.

* باكس كريستي: هي حركة كاثوليكيّة دوليّة من أجل السلام. ويتمّ تنظيم باكس كريستي في أقسام وطنيّة وجماعات محليّة تعرف باسم باكس. ولدت حركة باكس كريستي في نهاية الحرب العالميّة الثانية عندما قامت مجموعة من الفرنسيين والألمان اختاروا للصلاة والعمل من أجل المصالحة. وتتركز جهود باكس كريستي في خمسة مجالات هي: الحوار وثقافة السلام، والدفاع عن الإبداع والبيئة، ونزع السلاح، والدفاع والأمن، وحقوق الإنسان والتنمية التضامنيّة.

والذهاب إلى أبعد من ذلك، إلى تغيير ذوات المتصارعين. لكنَّ الصراع غير المدار أو سيّئ الإدارة يمكن أن يؤدّي إلى العنف السلبي والمدمّر. لأنَّ العنف يشكّل اختلالاً للصراع: فبدلاً من إيجاد حلٍّ ديمقراطي مريح لكلا الطرفين، فإنَّ العنف يصبح المسار الذي يسعى إلى البحث عن تسوية للصراع بالقضاء على الآخر.

2ـ ثقافة إنكار العنف بوصفه معيشاً

بالنسبة إلى جان-ميشال لانيو Longneau يمثل العنف معطى أنتروبولوجيّاً، إنَّه جوهري بالنسبة إلى الكائن الإنساني، وبالتالي أيّة محاولة لإنكار ذلك تعود إلى تجاهل جزء من الذات البشريّة. من هنا لا بدّ من إدانة عدم الوعي بهذا العنف الذي يسكننا والعنف الذي يحيط بنا، ويعتبر أنَّ الوعي بهذا العنف وحده يمكن أن يساعدنا للتعلم على كيفيّة مواجهته وجهاً لوجه. ولتدعيم هذا الموقف يمكن الانطلاق من ثلاث ملاحظات للانيو بخصوص العنف هي التالية:

أوّلاً: لقد وُجد العنف دائماً، وقام الإنسان بمحاربته في كلّ زمان، وصنع أسلحة أكثر تطوّراً على نحو متصاعد لتأمين حروبه.

ثانياً: العالم اليوم ليس أكثر عنفاً من الأمس البعيد؛ وإنَّما العنف اليوم صار مرئيّاً أكثر، وأكثر «عولمة» من ذي قبل، لا سيَّما من خلال وسائل الإعلام التي تنقل لنا يوميّاً مشاهد القتل والحرب من كلّ أماكن النزاع دون أدنى مراعاة للكرامة الإنسانيّة. لذلك يظهر عنف اليوم المشهدي ربّما أكثر تدميراً، بالنظر إلى الوسائل التكنولوجيّة الحاليّة، ولكنَّه ليس ظاهرة جديدة.

ثالثاً: قد نتحدّث كثيراً عن الوقاية من العنف. لكن يمكننا أن نطرح الأسئلة التالية: ما الذي يعنيه هذا؟ ما الذي نسعى إلى منعه وتجنّبه؟ ممَّ نخاف؟ لماذا نحن في وضع غير مريح قبالة العنف؟ هل هو الخوف من العنف الذي يدفعنا إلى منعه؟ إذا كان هناك حجّة أخرى غير الخوف، فما هي؟ ما الحجّة الإيتيقيّة الأخرى التي يمكن تأييدها لتبرير حقيقة تطوير برامج وقائيّة ضدّ العنف؟

نستطيع أن نلاحظ أنَّ الوقاية من العنف تأخذ أحياناً، وحتى بطريقة منحرفة، شكل عنف قانوني لا يقوم مطلقاً بمهاجمة أصل العنف. وبناء على هذا يدعم لانيو فرضيّة أنَّنا نعيش في ثقافة تنكر العنف اليومي المعيش؛ وكأنَّه يبدو أنَّ علينا أن نؤمن بعالم هادئ، في حين أنَّ الواقع عنيف. ويوجد العديد من الحجج التي تدعم هذه الفرضيّة، ومن بينها تطوّر العادات الحياتيّة الذي يشهد لصالح هذا الافتراض:

- ففي العصور الوسطى: كانت الثقافة هي التعبير عن جميع الاحتياجات (الجنسيّة، الطبيعيّة).

- في عصر النهضة: يجب أن يكون الإنسان خيّراً ممتلئاً بالطيبة، قادراً على التحكّم في نفسه، مثل مطالبة الإنسان بقمع نشاطه الجنسي.

- مع حضارة التصنيع وتطوّر الرأسماليّة: هناك حاجة إلى أشخاص لهم رؤية استشرافيّة (منتجين ولكن أيضاً مستهلكين) للسماح بتطوير موثوق به للرأسماليّة.

- في ثقافتنا الحاليّة مثلاً، التعبير عن المشاعر بطريقة قويّة غالباً ما يعتبر شيئاً غير إيجابي، فالشخص الجيّد هو الشخص الذي يتمكّن من ضبط نفسه واحتواء مشاعره والتحكّم فيها. حاليّاً، يبدو أنّنا بحاجة للاعتقاد في عالم غير عنيف. التعليم الذي ننقله لأطفالنا، وكذلك الذي تلقيناه يعكس هذا التوجّه، إذ نعتبر أنَّه من غير المقبول أن نكون عنيفين، فمن الخطأ أن تظهر الغضب عندما لا تحصل على ما تريد؛ فالطفل يتعلم أنَّه إذا أراد أن يكون محبوباً (بالمعنى الأوّلي للكلمة)، فيجب عليه أن يكتم غضبه وعدم إظهاره للآخرين، حتى لا يظهر بمظهر السيئين. أمّا من وجهة نظر سياسيّة ومجتمعيّة، فهذه الحاجة للاعتقاد في عالم غير عنيف يمكن أن نلمسها أيضاً فيما يلي:

- يوجد من جهة أولى طرق متعدّدة للوقاية من العنف: فهل هذا يعني أنَّ العنف لا يمكن أن يظهر لأنَّنا نخافه؟ وكأنَّنا نبحث عن إزالته بدلاً من تهذيبه.

- ومن جهة ثانية، هناك مصادرة ومراقبة للعنف من قبل الدولة: إنَّها تحتفظ «بالعنف الشرعي» (الشرطة والجيش)، وتسمح لهم بالسيطرة على المجال الخاص (تدخّل الدولة في العنف الأسري والزوجي والتحرّش في العمل ...).

- بالإضافة إلى ذلك فإنَّ التطوّر الإعلامي (التلفزيون والأفلام وألعاب الفيديو...) تعزّز أطروحة إنكار العنف؛ حيث إنَّ الصور المشبعة بالعنف تتفّه العنف وتستهين به (مشهديّة العنف)، وتؤدّي في بعض الأحيان إلى ضرورة إظهار مشاهد أكثر عنفاً من ذلك، من دون أن يكون لها تأثير حقيقي في حياتنا الشخصيّة. فالأفلام العنيفة تقدّم نماذج للمتفرّج للتعبير عن العنف الذي يشعر به في داخله. إنَّ العنف كما تظهره وسائل الإعلام لا يمكن مقارنته بالعنف المعيش، بمعنى العنف الذي أشعر به في داخلي، في جسدي ولحمي. فالاعتقاد في عالم مسالم يكشف عن نظرة طوباويّة، ويمثل نوعاً من الوهم الخطير، لأنَّ الحقيقة في واقع الأمر غير ذلك، فنحن نعيش في عالم عنيف، ولكلّ منّا داخل ذاته نفسها منابه من العنف، بل إنَّ «العنف يصبح كلّ فعل يصدر عنّا لنتصرّف ونفعل كما لو كنّا وحدنا فقط؛ وكأنَّ بقية الكون موجود هنا ليتلقى منا الفعل فقط». في حين تسعى الثقافة التي نعيش فيها لمنع العنف. «إنَّ مجتمعاً، حيث العلاقات تكون فيه كلها سلميّة، لا يوجد سوى في عالم والت ديزني الخيالي؛ لأنَّنا في الواقع نعيش مع أناس لا يمكن التنبّؤ بما سيفعلونه أو يقولونه،

إنَّهم مختلفون عنّا، لطيفون أحياناً، أشرار في أحيان أخرى، يمكنهم تحدّينا، ويمكنهم إزعاجنا. والاعتقاد بخلاف ذلك هو أمر طفولي. كما أنَّ الوعد بمجتمع خالٍ من العنف هو نوع من الديماغوجيا»[4].

ونظراً لهذا الوضع، سنجد أنفسنا أمام خيارين إذن لبناء ثقافة اللاعنف والسلام: إمّا أن نجعل الناس «لطيفين»، ويتضمّن ذلك قمع «الجانب الملعون»[5] فيهم، كما يقول جورج باتاي (Georges Bataille)، أو السماح لهم بالتعبير عن العنف. فما الآليّات التي تحرّك العنف وتنتجه؟

3ـ أسس العنف وميكانزماته

سنحاول فهم الآليّات التي تولّد العنف، أو بعبارة أخرى، سنفهم الأمر الذي يؤدّي بالبشر إلى المرور إلى مرحلة «فعل العنف» وممارسته. لا شكّ أنَّ العنف هو ظاهرة سطحيّة بادية للعيان، وحتى نتمكّن من السيطرة عليه فإنَّ الأمر يتطلّب البحث عمّا تخفيه هذه الظاهرة في أعماقها. فما الذي يدفع الناس لكي يكونوا عنيفين؟ وما الذي يجبرهم على الذهاب مباشرة إلى ممارسة «فعل العنف»؟

يوجد نوعان من الناس في التعامل مع شعور العنف؛ فبعض الناس يردّون الفعل بطريقة صادمة لا يمكن تصوّرها، والبعض الآخر يراكمون العنف الذي يشعرون به داخلهم ولا يخرجونه إلّا في وقت لاحق حين يخرج عن سيطرة الذات، لذلك فإنَّ تراكم العنف في بعض الأحيان يؤدّي إلى انفجار مفاجئ أمام واقعة تبدو تافهة، ويمكن مقارنة ذلك «بطنجرة الضغط» التي تنفجر بسبب خطأ في توزيع طاقتها أثناء الطّهو. وهذا يعني أنّه، في جميع الحالات، يشهد العنف على معاناة وشعور بالإحباط. ومن أجل وقف هذه الظاهرة والسيطرة عليها، فمن المفيد لنا أن نفهم السبب الذي يولّد العنف. فما أسباب العنف؟

أ) الاحتياجات والرغبات والإحباط: ما وراء ضرورة تلبية الاحتياجات الأساسيّة مثل الأكل والشرب والنوم ...فإنَّ فكرة الرغبة هي مثيرة للاهتمام لفهم الآليّات التي تعمل وراء كلّ ظاهرة عنف. في كثير من الأحيان الرغبة محرّك العمل الإيجابي، وحين لا تنجز الرغبة ما رغبت به فإنَّها تتحوّل إلى شعور بالإحباط الذي ينتج من عدم القدرة على تحقيق هذه الرغبة، هذا الشعور بالإحباط يمكن أن يكون هو المحرّك للعنف. فما يقودنا إلى الشعور بالعنف هو الوضع الذي أدّى بنا إلى التخلي عن شيء ما، وهذا يعني عندما أكون في مواجهة وضع مناقض لما أرغب، فإنَّ هذا الوضع الذي نوجد فيه يزعجنا ويحبطنا. على سبيل المثال، الطفل الذي لا يستطيع الحصول على اللعبة التي يرغب فيها، أو عندما يكون رجل ما مرغماً على أن ينحني أمام ما

4. J-M Longneau, «Attention à la démagogie», in le Vif l'Express, paru le 28 avril 2006.

5. Georges Bataille, «La part maudit», précédé de La Notion de dépense, Introduction de Jean Piel, Essai d'économie générale, Édition de Minuit, 1949, dans la collection «Critique», 232 pages.

تريده زوجه وترغب فيه وما يرفضه هو، أو عندما لا يحصل الطالب على الدرجة التي كان يعتقد أنَّه يجب الحصول عليها، أو عندما لا يمكن لدولة ما الوصول إلى مستوى ثروة دولة أخرى.

هذا الأمر يضعنا أمام واقع أنّنا نعيش في العصر الراهن في عالم يتميّز بما يلي: «كلّ شيء يجب أن يتحقق على الفور»، وخاصّة بالنسبة إلى الأجيال الشابّة. يصبح من الضروري الامتلاك، حتى لو كان ذلك عن طريق الاقتراض والديون، فبمجرّد الضغط على الفأرة مثلاً يمكن الحصول على كلّ شيء. وإذا لم يكن ذلك ممكناً، فإنَّ الأمر يصبح لا يطاق، ويولّد إحباطاً هائلاً. ولمواجهة الإحباط، يوجد ثلاثة حلول يمكن تقديمها، وهي:

- التخلّي عن الشيء المرغوب فيه، والاستسلام لعدم الرغبة فيه.

- القضاء على العائق الذي يمنع الحصول على الشيء المرغوب فيه، ثمّ الانتقام في وقت لاحق، إن لم يحصل على الشيء المبتغى.

- سعي الطرفين معاً إلى حلٍّ وسط، وفي هذه الحالة يكون الاثنان كلاهما مدعوّين إلى التخلّي جزئيّاً عن الشيء المرغوب فيه من قبلهما. غير أنَّ الحلّ عن طريق التفاوض غالباً ما يستغرق وقتاً أطول من الحلول الأخرى، وهو ما يتناقض مع الإرضاء الفوري للرغبات والحاجات.

فما الذي يختفي وراء شعور الإحباط هذا؟

ب) الانتقال من الخيال إلى الواقع:

بإمكاننا أن نحدّد ثلاث رغبات أو - محرّكات قويّة للفعل - عندما لا نعمل عليها يمكن أن تولّد العنف»*[6] وهي التالية:

1. الرغبة في السلطة المطلقة.

2. الرغبة في الانصهار.

3. الشعور بأنَّ كلّ شيء يخضع لي وهو من حقّي.

6* الفرضيّات هنا جزء من نهج نظام التحليل النفسي، وهي قابلة للتحويل إلى مجالات أخرى.

1. من خلال الرغبة في السلطة المطلقة، يجب أن نفهم: الرغبة في أن نكون مثاليين؛ بمعنى الرغبة في الارتقاء إلى مستوى ما نفكر به (واجب) أن نكون، وصعوبة تقبل ما لدينا من «نقاط الضعف».

- الرغبة في الاستقلال والحريّة السياديّة: لا أريد أن أخضع لأيّ قيد. كلّ شيء ممكن وكلّ شيء مسموح به لي. لا شيء ولا أحد يستطيع أن يفرض عليّ حدوداً على الإطلاق.

- سلطة البراءة المطلقة: الشعور بالكمال، وبعدم ارتكاب أخطاء أو عيوب، وبالتالي عدم الشعور المطلق بالذنب، في نظرتنا لأنفسنا وفي نظرة الآخرين إلينا.

- السلطة المطلقة في الوجود الخالد.

2. الرغبة في الدّمج، أو في علاقة تعبّر عن فكرة أنَّ الآخر يتمّ اختزاله إلى المعرفة التي أملكها عنه. فلا يمكنني القبول بأنّه يهرب عن هذا الإطار الذي وضعته فيه، وأنَّه يقوم ببعض الأشياء التي لم أكن أتوقع أنَّه بإمكانه القيام بها، وبالتالي خارجة عن السيطرة التي لديّ عنه، أو أنَّه ليس هو ما أعتقده عنه أو ما أريد له أن يكون. هذا هو الحال بالنسبة إلى الزوج الذي يرفض خروج زوجته بدونه أو يرى أناساً لا يعجبونه. بل هو أيضاً مثال للدولة التي لا تقبل لدولة حليفة لها أن تتبع توصياتها الجيو سياسيّة، على سبيل المثال. هذه العلاقة المبنية على الاندماج يمكن أن تسير في اتجاه معنيين: إمّا أنَّ الآخر هو الذي يجب أن يكون امتداداً لنفسي، أو أنَّه أنا من يختزل لكي يكون ما أعتقد أنَّ البعض يريدني أن أكون.

3. الرغبة الثالثة تتمثل في أنَّ «كلّ شيء من حقي ويخضع لي»: فمن حقي المكافأة إذا كنت أعمل بشكل جيد. ومن المفروض أن تجري معاملتي والإشادة بشخصي كبطل محرّر إذا حملت الديمقراطيّة إلى بلد ما. هذه الرغبات الثلاث تعود إلى الخيال. والرغبات الوهميّة هي غير قابلة للتحقيق بطبيعتها، لأنَّ الإنسان هو كائن محدود، لا قدرة مطلقة له ولا يستطيع العيش وحيداً، وهو في حالة عدم يقين دائم.

وإذا لم نكن واعين بهذا الأمر، فإنَّ الفرد، وعلى نطاق أوسع المجموعة الاجتماعيّة أو الدولة، تواصل تنفيذ سلسلة من الاستراتيجيات للحفاظ على حياة وكينونة هذا العالم الوهمي. البعض عزلوا أنفسهم داخل جزيرة شعورهم بالفشل والإحباط، إلى حدّ الاكتئاب أحياناً أو فقدان الشهيّة وحتى العودة على أنفسهم بممارسة العنف ضدّها، والبعض الآخر خلق لنفسه عالماً سحريّاً، وفقاعة وهميّة بإنكارهم للواقع. يحاول كلّ هؤلاء حماية فقاعاتهم ضدّ أيَّة هجمة يمكن أن تحدث زعزعة لهم من خلال تدمير أو تجاهل أيّ شيء يمكن أن يؤدّي بهم إلى الإحباط. البعض الآخر يتوصّلون لقبول الواقع، وإدارة هذا الإحباط والتحكّم فيه (التوتر بين الرغبة والواقع) بطريقة غير عنيفة. فماذا نعني «بقبول الواقع» لإخراج هذا العالم الخيالي الذي تعيشه هذه الشخصيّة؟ لنأخذ في هذا الشأن ثلاث حالات:

1. إذا توصّلت إلى قبول واقع أنّني لست مثاليّاً في كلّ شيء من زاوية كلّ وجهات النظر وفي أيّ وقت، وأنّني لست القادر على كلّ شيء، وإنّما مجرّد كائن محدود ونهائي يحمل في ذاته نقصانه، فعندها بإمكاني سماع وتقبل النقد من أيٍّ كان وبكلّ رحابة صدر والإقرار بمواطن الضعف في ذاتي. كما أنَّ عدم قدرتي على إنجاز الأشياء بطريقة مكتملة ومثاليّة لا يعني ذلك أنّي لست إنساناً غير جيد وغير جدير بالاحترام.

2. بالمثل أمام الرغبة في الانصهار: الإنسان هو في الأساس وحيد. لذلك فإنَّ الآخر والأنا في الأساس مختلفان ومتمايزان، أنا لست الآخر، كما أنَّ الآخر ليس أنا، لذلك يجب علينا أن نكون قادرين على قبول هذه المسافة غير القابلة للمحو، وهذه الاستحالة في الانصهار والاندماج. إذا توصّلت لقبول وحدتي، فإنّني سأقبل أنَّ الآخر يمكنه أن يوجد بالنسبة إلى ذاته نفسها، وأنّني بإمكاني إقامة علاقة معه دون أن يكون ما يفعله الآخر بإمكانه أن يمثل خطراً عليّ.

3. وأخيراً، فيما يتعلق بشعور أنَّ «كلّ شيء هو من حقي ويخضع لي»، يجب عليّ قبول حقيقة أنَّ الحياة هي لا يقينيّة، وأنَّه في غالب الأمر للحصول على شيء ما، فإنَّه لا يكفي أن أنتظر حتى يسقط من السماء. وأنَّه لا يجب ترجمة هذا اللايقين بالانتظار، أو الخضوع أو العداء تجاه من يجعل الحياة غير يقينيّة، ولكن على العكس من ذلك، بالعمل الإيجابي الذي يتيح لي الفرصة من أجل تحقيق أهدافي.

«إنَّ كلّ هذا يستدعي نهجاً تربويّاً وتعليميّاً، حيث نعلّم الناس إماتة خيال القوّة والسلطة، والسيطرة المطلقة على مصيرهم يغدو أمراً ضروريّاً. فعندما يقفز الواقع في وجهنا بعد حدث أليم، فإنّنا نميل إلى رفض ما نحن عليه واللجوء إلى الخيال. وهذا يترجم إلى سلوك النفي والعنف، أو الانسحاب داخل الذات، الذي نحتاجه أحياناً لقبول الواقع. هذا النهج التعليمي والتربوي يتمثل في مساعدة الناس على الخروج من المواقف الهروبيَّة»[7]. إنَّ بلوغ مرحلة الرشد معناه القدرة على التمييز بين الرغبة والواقع، وأيضاً التحكّم في الرغبة وجعلها قادرة على الصبر وتأجيل تحقيق ما ترغب فيه وتعويدها على انتظار دورها في التحقق أو القبول بتحقيقها بطريقة تشاركيَّة وجماعيَّة (وهو أمر ليس بالهيّن في مجتمع يتسم بالماديّة والفرديّة كتلك التي تتميز مجتمعاتنا بها اليوم). فالرشد يعني الوعي بأنَّ رغباتي تأتي في جزء منها من الخيال، وإدراك رغباتي كخيالات، وبالتالي ليست بالضرورة متحقّقة. وهذا يؤدّي إلى تقبّل الأمر الواقع والقبول حتى بالفشل والإحباط.

ما يمكن استخلاصه من هذا البحث أنَّ إثبات تجربة العنف هو شيء طبيعي جداً: فعندما أكون منفعلاً وغاضباً فإنَّ هذا الشعور يجب أن يخرج ويتمظهر خارجيّاً، وكلّ واحد منّا يشعر بالعنف داخله، لأنَّ لكلّ واحد منّا رغبات يشعر بها ويرغب في تحقيقها، فهذا الأمر من طبيعة الإنسان. لكنَّ العنف لا يمكن أن

7. J-M Longeau, in le Vif l'Express, «Attention à la démagogie», 28.04.2006.

يكون نمط حياة. يجب أن نكون قادرين على تجاوزه. التعبير عن الإحباط بواسطة العنف لا يمكن أن يكون إلّا خطوة في مسار يجب أن يؤدّي إلى قبول الوضع الذي نحن مطالبون بالقبول به كما هو، قبول أو إدارة الشعور بالإحباط، وقبول تمييز الرغبة عن الواقع. إنَّه عمل تعليمي وتربوي طويل حتى يتمكّن البشر من التمييز بين شكل دوافع الرغبة والجانب الخيالي. مركّزاً أكثر على الفرد تمكّن توماس (Thomas d'Ansembourg)، طبيب نفساني، من تطوير النظريّة القائلة إنَّ العنف الذي نخبره ونعيشه في حياتنا اليوميّة بداخلنا يأتي إلى حدٍّ كبير من نفي وإنكار أعمال العنف التي تعيش داخليّاً في ذواتنا، أي بمعنى آخر: «من العنف المعيش» الذي يشير إليه لانيو Longneau. ويفسّره على النحو التالي: عدم الاستماع إلى الذات يؤدّي عاجلاً أو آجلاً إلى عدم الاستماع إلى الآخرين. لقد تعلّمنا أن نكون أكثر لطفاً وأدباً، وتدرّبنا على ارتداء قناع، ولعب دور. تعلّمنا إخفاء ما يجول بداخلنا، عملنا على تجاهل أو إغفال الاحتياجات الخاصّة بنا. وهذا العنف الذي نمارسه على ذواتنا يجعلنا ننقل هذا العنف إلى الآخرين ونمارسه عليهم. لذلك «يتحدث Ansembourg عن «التواصل الواعي» للإشارة إلى التواصل الذي يسمح لنا بتحرير مشاعرنا والتعبير بوضوح عن احتياجاتنا بطريقة تفاوضيّة. هذا «التواصل الواعي» هو أساس تهذيب العنف لبناء ثقافة السلام التي نطمح إليها. لأنَّ «العنف ليس تعبيراً عن طبيعتنا: بل هو تعبير عن انتهاك طبيعتنا»[8] حسب Ansembourg

وأخيراً، لتثقيف نوازع العنف لدينا وتهذيبه، من الضروري تحديد معايير وحدود واضحة يتعيّن علينا احترامها. وغياب تلك المعايير يمكن أن يكون مقلقاً، وخصوصاً عندما نتموقع داخل الخيال، وعندما يصبح من الصعب التمييز بين الواقع والرغبة. وهذا ينطبق بصفة خاصّة على الشباب المندفع. فهل نحن حذرون بما فيه الكفاية في مدارسنا، وفي أسرنا، في حركاتنا واحترامنا للقواعد المشتركة اللازمة للعيش معاً؟ وهل نحن منتبهون بما فيه الكفاية لعلامات المنع، ومهتمّون بالعودة إلى القواعد، عندما يكون هناك صراع؟

8. Thomas d'Ansembourg Cessez d'être gentil soyez vrai – 2001- p. 233.

قائمة المصادر والمراجع

- Georges Bataille, «La part maudit», précédé de La Notion de dépense, Introduction de Jean Piel, Essai d'économie générale, Édition de Minuit, 1949, dans la collection «Critique».

- Katheline Toumpsin, Qu'est-ce que la violence? Publié avec le soutien du service de l'éducation permanente de la Communauté française.

- LONGNEAU, Jean-Michel; «Attention à la démagogie», in le Vif l'Express, paru le 28 avril 2006.

- Margaret Mead, Mœurs et sexualité en Océanie, Paris: Plon, 1969, Collection: Terre humaine.

- MULLER, Jean-Marie; «La non-violence, une idée neuve», in «Comprendre la non-violence», éd Racines, 1995.

- Pax Christi Wallonie; Qu'est-ce que la violence? ANALYSE 2006; Publié avec le soutien du service de l'éducation permanente de la Communauté française.

- SEMELIN, Jacques; «La non-violence expliquée à mes filles», éd. du Seuil, 2000.

- Thomas d'Ansembourg «Etre heureux n'est pas nécessairement confortable», Les Éditions de l'Homme, 2001.

- Thomas d'Ansembourg; Cessez d'être gentil soyez vrai 2001.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود

Mominoun Without Borders

للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال، المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

All rights reserved © 2018

جميع الحقوق محفوظة © 2018